خطبة صلاة الجمعة 20/ 3/ 2015 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(بر الوالدين)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِخَيْرٍ يُمْتَثَلُ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَبُ).

قال تعالى في وصف نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4].

قَالَتْ السيدة عائشة رضي الله عنها: (مَا كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ: لَبَّيْكَ).

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ شَيءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيبلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلاةِ» [الترمذي].

أيها الإخوة:

هذ هي الخطبة التاسعة في سلسلة خطب عنوانها (**فضيلة... أخلاق تعاملية**)

بإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لايليق بمثلك. وهذا هدف السلسلة.

عنوان خطبة اليوم: (**بِرُّ الوالدَين**)

البِرّ كلمة جامعة لكل خير: فالبِرّ الصدق والطاعة، والبِرّ الصلاح، والبِرّ كلُّ مَا تُقُرِّبَ بِهِ إِلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ عَمَلِ خَيْرٍ.

قَالَ أَبو مَنْصُورٍ: البِرُّ خَيرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَالَ ابْنُ الأَعرابي: البِرُّ فِعْلُ كُلِّ خَيْرٍ مِنْ أَي ضَرْبٍ كَانَ.

وليس البر مقروناً بالوالدين وحسب، فللأرحام بِر، وللصلاة بِر، وللجيران بِر، وللشركاء بِر، ولكنَّه عندما يَعرى عن المضاف إليه ينصرف إلى الوالدين عرفاً، في دلالة واضحة أنَّ أولى الناس ببرِّك وخيرك وصدقك وطاعتك **الوالدان**.

أيها الإخوة:

أجدني غنياً عن تحديثكم عن ثواب بر الوالدين ومغانمه، لأنكم تحفظون كما أحفظ وتعلمون كالذي أعلم، ألستم تذكرون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**رضا الرب في رضا الوالد, وسخط الرب في سخط الوالد**» [الترمذي]. والوالد يُطلَق على الأب والأم.

ألستم تذكرون حديثه صلى الله عليه وسلم: «**الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأَضِعْ ذلك الباب أو احفظه**» [الترمذي].

ألستم تحفظون قصة القائل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «**أُمُّكَ**» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَبُوكَ**». [البخاري ومسلم].

فبر الوالدين سبب رضا الله تعالى، وسبب دخول الجنة، وسبب إجابة الدعاء، وسبب زيادة العمر وسبب زيادة الرزق، وسبب بِر الأبناء، وسبب الأجر الكبير عند الله، وبِر الوالدين يحرِّك الصخر بين يديك، وبر الوالدين سبب توبة الله عليك:

ففي جامع الترمذي أنَّ رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني أصبتُ ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**هل لك أم؟**» قال: لا, قال: «**هل لك من خالة؟**» قال: نعم قال: «**فبِرَّها**».

أقول لست محتاجاً أن أحدثكم عن ثواب بر الوالدين ومغانمه، لأنكم تعلمون وتحفظون، ولكني أجدني محتاجاً إلى التذكير بصور عملية في البر، أقدمها بين يدي كل ابن وبنت، تذكرةً للناسي وتنبيهاً للغافل ومدارسةً مع الذاكر. وفيها تعاون على البر والتقوى.

صور عملية في البر:

1. إذا دخلَتْ أمك أو أبوك المكانَ الذي تجلس فيه، فمن البر أن تقوم لهما وتسلّمَ عليهما وتحتفي بقدومهما، وتقبّلَ يديهما أو رأسهما، وتوسعَ لهما المجلس لتجلسهما في خير أماكنه، وليس من البِرّ بقاؤك حيث أنت ملتفتاً عنهما منشغلاً بغيرهما.

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها قَالَتْ: (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ سَمْتًا وَدَلًّا وَهَدْيًا بِرَسُولِ اللَّهِ فِي قِيَامِهَا وَقُعُودِهَا مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ إِلَيْهَا فَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ مِنْ مَجْلِسِهَا فَقَبَّلَتْهُ وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا) [الترمذي].

2. إذا كنت عندهما ورأيتهما منشغلين بأمر، فمن البر أن تساعدَهما وتعينَهما مالم يطلبا منك الكف عن ذلك.
3. إذا وضعتَ لهما طعاماً أو وضعوه لك، فمن البر أن لا تبدأ حتى يبدأا وأن تصطفي لهما أطايبه لتقدمه لهما، ولعلك ترفع لقمة تعرف أنهما يحبانها لتضعها في فم أحدهما ذاكراً ما ألقماك في صغرك وغذياك في طفولتك.
4. إذا مشيت مع أحدهما، فمن البر أن تقدمه عليك في المسير، وفي الدخول وفي الخروج، وفي القيام وفي القعود.

ففي الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه أَبْصَرَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ: لِأَحَدِهِمَا مَا هَذَا مِنْكَ؟ فَقَالَ: أَبِي. فَقَالَ: (لَا تُسَمِّهِ بِاسْمِهِ وَلَا تمش أمامه ولا تجلس قبله).

5. إذا ناديتهما، فمن البر اختيار ألفاظ التقدير والتبجيل والاحترام عند ندائهما كما سمعتم في أثر أبي هريرة السابق.
6. إن انزعج منك أحدهما أو حزن، فمن البر ألا يمر يومُك أو تُطوى ليلتُك حتى تُرضيَه وتُدخِلَ على قلبه السرور كما أدخلت الحزن؛ أخرج أحمد في المسند عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَايِعُهُ، قَالَ: جِئْتُ لِأُبَايِعَكَ عَلَى الْهِجْرَةِ، وَتَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ، قَالَ: «فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا».

قال تعالى في سورة طه: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [طه: 40] وفي سورة القصص ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: 7] وفي سورة الأحزاب ﴿أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾ [الأحزاب: 51] وفي سورة مريم

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾ [مريم: 24]، بيَّنت الآيات أنَّ حزن المرأة عميق وألمها منه شديد، فرفقاً بأمك لاتحزنها.

7. إذا أردت القيام بأمر مهم كسفر أو دراسة أو بيع دار أو اختيار زوجة، فمن البر أن تستأذنهما وتستشيرهما، فإن الله يُنطق الوالدان بما فيه خيرك ونجاحك.

أخرج المروذي في كتاب البر والصلة مرسلاً عَنْ مُجَاهِدٍ، أَنَّ رَجُلًا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ خَرَجَ مَعَهُ مُجَاهِدًا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَذِنَ لَكَ أَبُوكَ؟**» قَالَ: لَا قَالَ: «**فَارْجِعْ**».

وأخرج عَنْ هِشَامٍ الدَّسْتُوَائِيِّ، عَنِ الْحَسَنِ فِي الرَّجُلِ تَقُولُ لَهُ أمه: أَفْطِرْ - يَعْنِي صوم النافلة - قَالَ: (لِيُفْطِرْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ قَضَاءٌ، وَلَهُ أَجْرُ الصَّوْمِ وَالْبِرِّ, وَإِذَا قَالَتْ: لَا تَخْرُجْ إِلَى الصَّلَاةِ، فَلَيْسَ لَهَا فِي هَذَا طَاعَةٌ هَذِهِ فَرِيضَةٌ).

وعَنِ الْحَسَنِ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ حَجَجْتُ – يعني نافلة- وَإِنَّ أُمِّي لم تأذن لِي فِي الْحَجِّ. فَقَالَ لَهُ: (لَقَعْدَةٌ مَعَهَا تَقْعُدُهَا عَلَى مَائِدَتِهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَجَّتِكَ).

8. إذا طلبت إليك أمك أو أبوك أن تقطع رحمك بألا تزور عمك أو خالك أو طلبا إليك ألا تبر زوجتك أو أن تطلقها، فمن البر بهما ألا تستجيب طلبهما رحمةً بهما وإشفاقاً عليهما، إذ لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق، وصاحبهما في الدنيا معروفاً ولا تواجههما بما يكرهان.

عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قِيلَ لَهُ: رَجُلٌ أَمَرَتْهُ أُمُّهُ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ؟ قَالَ الْحَسَنُ: (لَيْسَ الطَّلَاقُ مِنْ بِرِّهَا فِي شَيْءٍ).

سأل رجل عَطَاءً عَنْ رَجُلٍ لَهُ أُمٌّ وَامْرَأَةٌ، وَالْأُمُّ لَا تَرْضَى إِلَّا بِطَلَاقِ امْرَأَتِهِ قَالَ: (لِيَتَّقِ اللَّهَ فِي أُمِّهِ وَلِيَصِلْهَا). قَالَ: أَيُفَارِقُ امْرَأَتَهُ؟ قَالَ عَطَاءٌ: لَا.

وعن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: كَانَتْ أُمِّي حَلَفَتْ أَنْ لَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ حَتَّى أُفَارِقَ مُحَمَّدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15].

9. إذا كنت متزوجاً تسكن بعيداً عنهما، فمن البر أن تكثر زيارتهما وتجلس إليهما؛ إن استطعت كل يوم فافعل، وإن تعذر ففي كل يومين أو ثلاثة على الأكثر، لأنهما يشتاقان إلى ولدهما الذي ربياه ومهجتهما التي افتقداها.

وإن لم تستطع الزيارة فليس أقلَّ من مكالمة هاتفية يومية تسعدهما بها وتتحفهما بحديثها.

10. إذا زرتهما في بيتهما، فمن البر ألا تدخل حتى تحمل شيئاً من الطعام أو الهدايا لهما، فهما يحبان منك ذلك؛ لا لأنه ثمين غال، ولكن لأنه منك فهو ذكرى من ابن لوالديه.

سألتْ مسنَّة جاوزت السبعين أحد الدعاة: ألك أم على قيد الحياة؟ قال: نعم. قالت: أوصيك يا ولدي ألا تدخل عليها حتى تحمل شيئاً لها، فإنها تفرح بذلك، وكم أترضى على ولدي كلما دخل عليَّ بشيء يحمله لي بين يديه.

11. إذا احتدم نقاش بينك وبين أحد والديك، فمن البر أن لا ترفع صوتك أمامه، ولا تقدم رأيك على رأيه، وأن تطمئِنه أنك ستبذل في تطبيق رأيه ما استطعت، وأغلق النقاش بهدوء.

12. إذا مات أحد والديك أو كلاهما، فمن البر الدعاء لهما وإنفاذ عهدهما وصلة أرحامهما وإكرام صديقهما، ففي سنن أبي داود عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا**».

أعرف شاباً مسرفاً على نفسه، ولكنه شديد البر بأمه، فلما ماتت اِلتاعَ لفقدها، فكان يزور قبرها في كل يوم عصراً ليقرأ هناك سورة يس ويعود، يطفيء نار شوقه لها وحزنه على فراقها، لايخطئه ذلك إلا أن يكون مسافراً أو مريضاً، فكان أن كافأه الله بترك المعاصي والسير على طريق الصالحين وسعة في الرزق عندما ضاقت على العباد أرزاقهم.

أيها الإخوة والأخوات:

مهما كنا نتحدث عن الفضيلة والأخلاق التعاملية؛ فإنَّ بر الوالدين مفتاح كلِّ خلق نبيل في التعامل وإن عقوقهما مفتاح كلِّ خلق ذميم.

وكيف يرجى خير من لاخير فيه لوالديه، وكيف تطلب فضيلة ممن لا يَذكُر فضل والديه.

أيها الأبناء والبنات:

البر اسم جامع لكل خير، فمهما استطعتم أن تحملوا الخير والبر لوالديكم فافعلوا، فإني وجدت أسباب التوفيق سبعة، سابعها وكلمة السر فيها **بر الوالدين**.

والحمد لله رب العالمين